ليلة الضياع ..

قصة بقلم سميرة عزام

ـ ماما كيف نضيع سامبو ؟

ـ نضعه في كيس كبير .

ـ اي كيس ؟

ـ واحد من اكياس السكر الفارغة .. كبير يسع سامبو .. ويسع معه.

ـ ماذا يسع ..؟

ـ كل طعامك .. لاشيء..

ـ وبعد ..؟

ـ وبعد يحمله البقال الى مكان بعيد

ـ ماشيا ؟

ـ ماشيا او راكبا الترام

ـ امي الا يعرف سامبو ان يعود ؟

ـ هذا العجوز الاجرب ..؟ لا لو رجع فليس امامه الا ان يموت غرقا في البحر ..

ـ وتأكله سمكة كبيرة ، اليس كذلك ؟

ـ لتأكله العفاريت . اما انا او هذا العجوز الاعمى في هذا البيت ..

حوار سمعته ام اسعد اكثر من مرة ... حكاية المائدة من الام للصغير كلما جلس يأكل .. تستثير بها شهيته للطعام .. وحوار الام والصغير ليس جديدا .. ولكنها تحس الساعة بانه لم يكن مزاحا ... فقد عادت لتوها من زيارة لجارة فلما بلغت البيت تلقتها على الدرج عينان مدورتان سوداوان تطلان من وجه سمين لطيف

ـ احزري ان كنت شاطرة اين سامبو ؟.

وكان حفيدها موشكا ان يستبق جوابها فلا يخليها تحزر لولا ان اطلت امه من اعلى الدرج وصرخت به صرخة كاد يتعثر بسببها لولا يدا جدته اللتان سارعتا تتلقفانه . ورفعت رجلا متثاقلة النقلة ترقى الدرج ويدها في يد الصغير فما تبلغ الباب حتى تلقي على الكنة تحية كئيبة ثم تمضي الى غرفتها لتلقي بشالها الاسود الى السرير وتسرع للشرفة الخلفية حيث يجلس سامبو فلا تجد الا طبقا من التوتياء متآكل الدهان وعظمة باقية لم تقو عليها اسنان الكلب

اما هو فلم يكن هناك..

وهنا تذكرت الحكاية ..

وجمدت تتأمل العظمة . كانت بيضاء نظيفة لم يدع سامبو شيئا عالقا بها كأنما كان يحس انها اخر اكلاته في هذا البيت ، وان مصير شيخوخته بعد هذه العظمة معلق بشفتين حقودتين .. واحست بقلبها مسرحا لمأساة جديدة من هذه المآسي الصغيرة التي قد لا تستحق اسمها لولا ان مصدرها كنـــه ،

كنه وكلب عجوز ، وكانت العداوة في نظر الكنه متكافئة الى درجة ان تجعل مصير الكلب العجوز طعاما لسمكة او ضياعا في حاكورة مهجورة ومن قال ان الدور بعد الكلب لن يكون لها ؟

سفيهة تريد كيسا يسعه ويسع .. وتسكت كأنها وهي تتلذذ في وصف الطريقة انما تتخيل حماتها تتكوم في الكيس ويحملها صبي مأجور الى اي مكـان ..

ماذا يقول سامي لو عرف ؟

اجل سامي .. فالاخر الكبير لا يجد في مصير الكلب اكثر من نهايـة طبيعية يستحقها كلب شيخ .. ولعله سيبتسم ببلادة لو سمع زوجتـه تقول (كيس يسعه ويسع ..) اجل ماذا يقول سامي ؟

وتمثلت صورته رأسا.شاب قوي يصعد سلم الباخرة بحماس من يرتمي في المجهول ، ولما بلغ راس السلم رفع خصلة هي مدلاة على جبينه ولوح لامه وصاح بها بصوته القوي . امي لا تبكي . وصيتي لديك سامبو . اريده مدللا كما لو كنت موجودا لا تهملوا حمامه فيأكله القراد .

وارتمت ضحكته عليها من عل حتى مسحها صفير الباخرة الطويل . ولما رجعوا من الميناء تلقاها سامبو عند اعلى السلم فتسمح بها وحك حذاءها بمنخره كانما احس ان العطف بعد سامي لن يأتي الا منها ، وكانت هي قبلا قليلة الاحتفال به وقد ضربته مرة ومرتين حين مزق باسنانه طرف مفرش السرير ، وكان ما يزال صغيرا اذ ذاك ، وكثيرا ما ناقشت سامي في نفعه ، وكانت اول من وقف في وجهه حين عرض عليها مازحا ان يحضر كلبة انثى للبيت لتتشكل منها وسامبو عائلة من الجراء السود .. ولكنها الان بعد سفر سامي مستعدة ان تنسى ، فتحب سامبو كما لم تحبه قبلا. وكانت مخلصة النية فافطار سامبو في الصباح صار خبزا اكثـــر طراوة وصار حليبا لم يعتد ان يراه طافحا بالماعون هكذا . ولما حان وقت حمامه لم تبخل عليه بالصابون ونظفته وسرحت شعره الاسود الطويل بمشط خشبي وقبلته وهي التي طالما حذرت سامي من عبث تقبيل الكلاب فنفسها مسموم ينفث جراثيم لا تعرف لها اسما .

ولما وصلت من سامي اول رسالة حملت المظروف ذا الاطراف الزرقاء الحمراء وقالت له : « سامي يسلم عليك . لقد دخل (الطبية) وقد لا تعرفه حين يرجع البنالابسا نظارة على عينيه. كل الاطباء يلبسون النظارات. حضر نفسك لتنتقل الى عيادته فتكون كلبا وجيها . كلب الدكتور .. الدكتور سامي .» واستحت ان تقول بصوت مسموع « وساكـون انا ام

الدكتور .» وانتشت الى درجة ان قصت له قطعة من قالب الكعك الذي صنعته كنتها ، حملتها اليه خلسة بعد ان قضمت اطرافها المزينة بالزبيب ومبروش جوز الهند وصارا صديقين .

ان صداقة كلب تعوض كثيرا فالانسان مع كنته مضطر الى ان يشكو ، فاذا كان الابن في صف الزوجة وكانت الخادم لا تحفل بها فمن لها غير سامبو ؟

كان الوحيد الذي يمكن ان تفتح له قلبها وتصب شكاياتها في اذنيه الطويلتين

ـ سامبو : أرأيت ابله من كنتي ؟ تسلق البطاطس ولا تستحي ان تقول الغندرة ليست للعجائز .. وترفض ان اجالس صديقاتها . وتأنف حتى ان تجلس معي الى مائدة واحدة . كأن حياتي في بيت ابني صدقة منها .. مجنونة من تزوج ابنا ، لو تزوجت يا سامبوفساكرهك ، ساكرهك .

وفي ليال كثيرة حين تغلق الزوجة عليها وعلى زوجها الباب وتبقى العجوز وحيدة في القاعة تروح ترفو جوارب ابنها وتحادث سامبو باخبار سامي وكيف اعفته الجامعة من الاقساط لانه مجتهد . اشطر الطلبة على الاطلاق . تقول هذا وتقوم فتخرج كومة رسائل تستعيد سطورها بجهد ، ويعرف سامبو ان هذه من سيده الغائب فيروح يحرك ذيله بنشوة قوية ، ولا يكتئب الا حين يرى العجوز تمسح دمعة تفبش نظارتيها .

وكان هذا التعاطف بين عجوزين اكثر ما يؤذي الكنة فقد كرهت ان ترى الحماة مطمئنة الى هذا الحيوان فجعلت من هذا مجال تندر يسمح لها ان تقول بمسمع من الحماة : « ان الحيوانات تخرف ايضا .. »

فيضحك زوجها برقاعة كأن المعنية جارة لا ام .

ولم يظل الامر محصورا في تندرها فقد كانت دائما مستعدة ان تحول عواطفها الى احساسات معادية تعبر عنها حركات رجليها وهي ترفس الكلب فلا تبالي بعوائه الحزين اذا اقترب من مائدة الطعام او لحس ارجل الصغير بلسانه ، او عوى في وجه صديقة لها .

وكانت تردد دائما انها ليست مستعدة ان تتحمل في البيت خرفين .. وكانت جادة .. وهوذا سامبو قد راح . مسكين ! اهذه نهاية تتوج شيخوخته الطيبة وتكافيء شهورا وسنينا من الاخلاص ؟

كيس يسعه ويسع ..

وكانت تردد دائما انها ليست مستعدة ان تتحمل في البيت خرفين .. وكانت جادة .. وهوذا سامبو قد راح .

مسكين ! اهذه نهاية تتوج شيخوخته الطيبة وتكافيء شهورا وسنينا من الاخلاص ؟

كيس يسعه ويسع ...

ترى يأتي دورها على يد هذه الشرسة ؟

وجمدت العجوز في مكانها على الشرفة فهي في حياتها لم تحس وحشة تتمدد في قلبها كما احست الساعة

وبكت حتى شبعت دموعا .

وانتفضت حين اتى الليل.

كان لا بد ان تفعل شيئا من اجل سامبو .. من اجل شيخوختهما معا .

ونزلت الدرج تتحامل على قدمين لا تلبيانها بمرونة . لم تجد صبي لبقال فتسأله . ولم تخرج بشيء حين حملت سؤالها الغريب : « من راي سامبو محمولا في كيس ؟ »

كانوا يسمعون ثم يهزون اكتافهم . انهم لا يدركون ماذا يعني لها ان يموت سامبو وتموت هي من بعده على يد جلاده ، مسكين ! تسع سنوات مخلصة لا تشفع له ان يموت في البيت ..

واخذت دربها في اتجاه الغرب ، صوب البحر . وانحدرت في الطريق الذي يؤدي الى المنارة ثم انعطفت يسارا تدفعها الريح دون جهد . كانت ليلة سوداء ليس لها قمر . ومصابيح الشارع عمياء لا تضيء فلا يسمع فيها الا صوت الموج يضرب بصخب احمق اطراف الصخور المنتصبة على محاذاة الشاطيء العميق .

وحاولت عيناها ان تشقا الظلمة لتبصرا سامبو في كيسه او على قوائمه يطالعها من بين الصخور او تحمله موجة رفيقة تتأبى على الجثث

ولكنها لم تر الا الظلمة وخيالات اضواء بعيدة في الماء وراحت تمشي، وقطعت الكورنيش الطويل وسلمها هذا الى الضواحي لا تتوقف الا اذا سمعت عواء

ولم تنتبه الى انها شطحت بعيدا الا حين ارتمت على حجر تستريح وتسلم لليل عتابها المجروح ولكن الليل لم يجب . ظل صامتا لا يمزق صمته الا عواء بعيد لكلاب سارحة ليس بينها سامبو على كل حال .

سميرة عزام

صدر حديثا :

ايحى اللاتينى

رواية

بقلم الدكتور

سهيل ادريس

الطبعة الثالثة

دار الآداب - بيروت